النظام المفهومي لمصطلح الوسطية في التصور القرآني ومظاهره في تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس

بقلم
د. مبارك بلالي
كلية الآداب ـ جامعة أدرار
mebarekblali@yahoo.com

ملخص البحث

جاءت مادة " وسط " في القرآن الكريم في غير ما وضع منه في صور مشتقاتها المختلفة: "وسطن" "وسطاً" " أوسط" " الوسطى".. ولا شك أن هنالك مفاهيم سياقية محدّدة لكل كلمة من تلك الكلمات في موضعها من الآي القرآني.

تهدف هذه السطور إلى الكشف عن النسق المفهومي لمادة "وسط" ومشتقاتها في القرآن الكريم، وكذا التعرف على المجالات الدلالية الأصلية لتلك المادة المذكورة، بما يسمح باستجلاء الخصائص والسمات المفهومية لهذه المادة ومشتقاتها في الاستعمال القرآني، مع الاستعانة بآراء وأقوال المفسرين واللغويين وغيرهم ومناقشتها، بهدف الاستفادة منها في معرفة علاقات تلك الخصائص والسمات المفهومية المختلفة، وأثر ذلك كله في وصف " الأمة الوسط " التي وصف الله بها أمّة خاتم النبيين محمد ﷺ.

كما يهدف هذا الموضوع –أيضاً– إلى تبين مظاهر وخصائص الوسطية القرآنية في واحد من أهم التفاسير الحديثة للقرآن الكريم في الغرب الإسلامي والتي كان لها دور بارز في نشر الثقافة الإسلامية المعتدلة، في الجزائر خاصة وفي الغرب الإسلامي بعامة، تلك الثقافة التي تغرف من معين الكتاب والسنة.. عنيت بالتفسير تفسير ابن باديس، للعلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

جعل الله سبحانه وتعالى اللغة العربية وعاء وحيه المنزل على خاتم رسله محمد ﷺ، وجاء القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية جارياً على لسان العرب بحسب معهودهم في الاصطلاح على المعاني، بل ومتجاوزاً لها، ومتسنّماً أعلى ذراها، ومتبوئاً الدرجة العليا والغاية العظمى التي ليس بعدها غاية.

إن دراسة مصطلحات القرآن بالوقوف على أنساقها المفهومية ودلالاتها السياقية هي الطريق الوحيد إلى

معرفة مفاهيم القرآن الجزئية التي يحصل بها تجديد فهمه، والذي به يتم تجديد العمل به، ومن ثم تجديد الحال.

إن تلك الدراسة تستلزم استيعاب تعريفات وأقوال السابقين وجهودهم في تبين المراد من المصطلح القرآني وبيان نظامه المفهومي، تتمثل تلك التعريفات والجهود في ما خلفه اللغويون والمفسرون وعلماء المعاجم وغيرهم، ممن عنوا بالمصطلح القرآني في دلالته السياقية اللغوية والقرآنية.

يهدف هذا البحث إلى دراسة واحد من تلك المصطلحات القرآنية المهمة –على صعيد تحديد معالم رسالة القرآن – هو مصطلح " ألأمّة الوسط"، من خلال التعرض إلى خصوصيته الدلالية وخصوبته المفهومية التي صارت له –وهو مركب من اللفظتين (الأمّة والوسط)– داخل الرؤية القرآنية.

كما يهدف البحث – أيضاً – إلى تبين مظاهر وخصائص الوسطية القرآنية في واحد من أهم التفاسير الحديثة للقرآن الكريم في الغرب الإسلامي، والتي كان لها دور بارز في نشر الثقافة الإسلامية المعتدلة، في الجزائر خاصة وفي الغرب الإسلامي بعامة، تلك الثقافة التي غرفت من معين الكتاب والسنة.. عنيت بالتفسير تفسير " مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، للعلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله، هذا الرجل القرآني الذي كان له –بشهادة صديقه المقرب العلامة البشير الإبراهيمي رحمه الله– "ذوق خاص في فهم القرآن، كأنه حاسة زائدة خُص بها. يرفده – بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقادة، والبصيرة النافذة– بيان ناصع، واطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع ورأي سديد في عوارضه وأمراضه. وله في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم، وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقته، وهو رأي الهداة المصلحين من قبله".

تتبلور إشكالية البحث في طرح الاستفهامات التالية:

1- ما هي خصائص ومحددات المصطلح المركب " الأمة الوسط" في القرآن، من خلال الشبكة المفهومية الكلية لمفهوم "الوسطية"، وما يرتبط به من مفاهيم ودلالات في القرآن؟

2- هل لتلك الدلالات السياقية المتعددة لمادة " وسط " ومشتقاتها نسق مفهومي واحد يربطها؟ وما مدى حضور ذلك في تآليف المفسرين وغيرهم ؟

3- ما مدى حضور النظام المفهومي الكلي لمصطلح "الأمة الوسط" في تفسير ابن باديس؟ بوصفه واحداً من علماء الجزائر، الذين سعوا إلى تقريب مفهوم الوسطية في القرآن من خلال تعليم العقيدة الصحيحة لأبناء الوطن، و ترسيخ القيم الربانية القرآنية بوصفها أساس الدين، ومن خلال تقرير مبادئ ومعاني : العدل والخيرية والاستقامة والأمن، وغيرها.

وقد أُلفت – في موضوع الوسطية في القرآن – مجموعة من الكتب والدراسات نذكر عيونا منها.

فمن الدراسات المنشورة نذكر:"الوسطية في ضوء القرآن الكريم" للشيخ الدكتور ناصر العمر، و"الوسطية في القرآن الكريم" للدكتور علي الصلابي، وكتاب "الوسطية في القرآن الكريم" لعلي محمد محمد. ومن البحوث المخطوطة دراسة "الوسطية في ضوء القرآن الكريم" لعبد الحميد طنطاوي، وهي رسالة دكتوراه مخطوطة

بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر قسم التفسير، وبإشراف الدكتور الحسين أبو فرحة (1996م).

كما لابد من الإشارة هنا إلى أن معالجتنا لموضوع الوسطية تختلف عن تلك الدراسات المذكورة، بسبب أن تركيزنا كان حول المصطلح المركب " الأمة الوسط"؛ فقد تعاملنا معة كوحدة اصطلاحية واحدة، فضلا عن توسلنا بالمعرفة اللغوية والجانب الدلالي منها على وجه الخصوص، في تناول مشتقات مادة "وسط" في القرآن الكريم، وتتبع دلالاتها السياقية في الآيات القرآنية. أما ما أُلف في موضوع الوسطية في الإسلام عموماً، فهي من الكثرة بحيث لا تحصى، وليس هنا موضع سردها.

اشتملت خطة البحث على ثلاثة مباحث؛ تناول المبحث الأول منها: النظام المفهومي لمصطلح " الأمة" في القرآن: وشمل مفاهيم: الجماعة، الدين، الرجل الإمام المنفرد، ومفهوم الزمن والحين.

وأما المبحث الثاني: فقد تناول الدلالات السياقية لمادة " وسط" ومشتقاتها في القرآن وهي: " وسطاً"، "وسطن"، "أوسط"، "أوسطهم"، و"الوسطى".

وأما المبحث الثالث: فتناولنا فيه مظاهر الوسطية في تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس.

وآخراً، ختمنا الموضوع بخاتمة ضمناها أهمّ ما انتهى إليه البحث من نتائج.

المبحث الأول: النظام المفهومي لمصطلح "الأمة" في القرآن.

ورد مصطلح الأمة في القرآن الكريم بمعان متعدّدة تربطها صلة اشتقاقية في أصل المعنى اللغوي، ويمكن أن ترجع تلك المعاني المتعدّدة إلى أصل مفهومي قرآني واحد، والآن نعرض لتلك المعاني المتعدّدة بعد أن نتعرف على الأصل الاشتقاقي لها في اللغة.

لفظ "الأمة" –في اللغة– من الأمّ،جاء في اللسان: «الأَمُّ، بالفتح: القصد. أمّه يؤُمُّه أمّاً إذا قصده»[1]، ومما يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾[المائدة: 2] قال ابن الجوزي «الآمّ: القاصد»[2].و"الأمّة" تتصرف في معان كثيرة كما جاء في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حيث ورد فيه: «والأمّة: الجماعة، وتكون واحداً إذا كان يُقتدى به في الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبراهيمَ كانَ أُمَّةً قانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: 120]، وقال ﷺ في زيد بن عمرو بن نُفيل: «يُبعَثُ أمّة وحده» لأنه لم يشرك في دينه غيره، وقد يطلق لفظ الأمة على غير هذا المعنى، ومنه قوله تعالى:﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾[الزخرف: 22]، أي: على دين وملة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء: 92]. وقد تكون بمعنى الحين والزمان؛ ومنه قوله تعالى:﴿ وَادَّكَرَ بَعدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45] أي: بعد حين وزمان...»[3].

ويرى صاحب اللسان أن تلك المعاني المتعدّدة لكلمة "أمّة" ترجع جميعها إلى معنى القصد بحيث يقول: «وأصل هذا الباب كله من القصد. يقال: أَمَمْتُ إليه إذا قصدته، فمعنى الأمة في الدين: أن مقصدهم مقصد

[1] لسان العرب، لابن منظور، 21/9. (أ م م).
[2] زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، 274/2.
[3] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 86/1.

واحد.. ومعنى الأمّة في الرجل المنفرد الذي لا نظير له أن قصده منفرد من قصد سائر الناس.. ومعنى الأُمة: القامة سائر مقصد الجسد، وليس يخرج شيء من هذا الباب عن معنى: أَمَمْتُ: قصدت»[4].

وفيما يلي نتناول تلك المفاهيم التي ورد بها لفظ "الأمة" في القرآن.

1- مفهوم الجماعة.

يعدّ مفهوم الجماعة هو الأصل في دلالة لفظ الأمّة وتنطوي تحته أنواع متعدّدة من الجماعات نوردها في الآتي:

النوع الأول: الجنس من كل حيّ: فقد ورد هذا المعنى للفظ "الأمة" في قوله تعالى: ﴿ وَما مِن دابَّةٍ فِي الأَرضِ وَلا طائِرٍ يَطيرُ بِجَناحَيهِ إِلّا أُمَمٌ أَمثالُكُم ما فَرَّطنا فِي الكِتابِ مِن شَيءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِم يُحشَرونَ ﴾ [الأنعام: 38].

وقد اختلف المفسرون في المراد بلفظ "أمثالكم" في هذه الآية: قال الراغب الأصفهاني (ت 403هـ): «أي: كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع فهي من بين ناسجة كالعنكبوت وبانية كالسَّرفَة ومدخرةٍ كالنمل ومعتمدة على قوت وقتِه، كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع»[5].

وقال الزمخشري: (538هـ) (أمم أمثالكم) أي: مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وأعمالكم»[6].

وقال القرطبي (ت 671هـ): «أي: هم جماعات مثلكم في أن الله عزّ وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعَدَل عليهم، فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به»[7].

وقال النسفي (ت 701هـ): «(إلا أمم أمثالكم) أي: في الخلق والموت والبعث والاحتياج إلى مدبّر يُدبّر أمرها»[8].

و ذهب بعض العلماء الآخرين إلى أنها أمم في الدين ومعرفة الخالق، قال ابن قتيبة (ت 286هـ) «(أمم أمثالكم) أي: أصناف وكل صنف من الدواب والطير مثل بني آدم في المعرفة بالله..»[9]، وذهب إلى هذا المعنى أبو عبيدة (ت 208هـ) في قوله: «(أمم أمثالكم) أي: أجناس يعرفون الله ويعبدونه»[10]. كما أن ابن منظور في لسان العرب نجده يؤيد هذا المذهب حين قال: «(أمم أمثالكم) في معنى دون معنى –يريد والله أعلم– أن الله خلقهم وتعبدّهم بما شاء أن يتعبدهم من تسبيح وعبادة علمها منهم ولم يفقهنا ذلك»[11].

---

[4] لسان العرب، لابن منظور، 25/7 (أ م م).
[5] معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص 21 و 22.
[6] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، 17/2.
[7] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 221/3.
[8] تفسير النسفي، 17/2.
[9] تأويل مشكل القرآن، ص 445.
[10] زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، 35/3.
[11] لسان العرب، لابن منظور، 25/9. (أ م م).

والذي يبدو أن هذا المذهب أقرب إلى الصواب من المعاني السابقة التي أوردناها – سابقاً – لجملة من المفسرين وهم: الراغب الأصفهاني، والزمخشري، والقرطبي، والنسفي.

النوع الثاني: الجماعة من الناس: ورد هذا المعنى للفظ "الأمة" في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: 23].

قال ابن منظور: «الأمة: الجماعة قال الأخفش: هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع..»[12]. وقد أجمع المفسرون[13] أمثال الزمخشري والقرطبي والنسفي، على أن معنى لفظ "الأمة" في الآية السابقة هو الجماعة من الناس كثيرة العدد القاصدة للسقاية.

النوع الثالث: الجماعة من الناس تتخذ موقفاً من الدين.

ورد هذا المعنى في عدة آيات وهي:

- ﴿ وَقَطَّعناهُمُ اثنَتَي عَشرَةَ أَسباطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف: 160].
- ﴿ وَقَطَّعناهُم فِي الأَرضِ أُمَمًا مِنهُمُ الصّالِحونَ وَمِنهُم دونَ ذٰلِكَ ﴾ [الأعراف: 168].
- ﴿ وَمِن قَومِ موسى أُمَّةٌ يَهدونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعدِلونَ ﴾ [الأعرف: 159].
- ﴿ وَإِذ قالَت أُمَّةٌ مِنهُم لِمَ تَعِظونَ قَومًا اللَّهُ مُهلِكُهُم أَو مُعَذِّبُهُم عَذابًا شَديدًا قالوا مَعذِرَةً إِلى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُم يَتَّقونَ ﴾ [الأعراف: 164].
- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 65-66].
- ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ .ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 111-115].

والجماعة هنا مقصود بها بنو إسرائيل قوم موسى، وإن كانت آية المائدة تشمل أيضاً النصارى بحيث جاء بلفظ أهل الكتاب.

النوع الرابع: الجماعة التي أرسل إليها رسول.

---

[12] لسان العرب، لابن منظور، 9/25 و 26.

[13] ينظر: الكشاف، 3/170. والجامع لأحكام القرآن، 7/3267. وتفسير النسفي: 3/291.

ورد هذا المعنى في الآيات التالية:

- ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسولٌ فَإِذا جاءَ رَسولُهُم قُضِيَ بَينَهُم بِالقِسطِ وَهُم لا يُظلَمونَ ﴾ [يونس: 47].

- ﴿ وَلَقَد بَعَثنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا أَنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطّاغوتَ فَمِنهُم مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنهُم مَن حَقَّت عَلَيهِ الضَّلالَةُ فَسيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبينَ ﴾ [النحل: 36].

- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24].

ويعني ذلك أن كل أمة أرسل إليها رسول، وأن هؤلاء الناس الذين أرسل إليهم الرسول سموا أمة لأنهم مقصودون بالدعوة من قبل رسلهم، قال القرطبي في تفسير الآية الأولى (آية سورة يونس): «يكون المعنى: ولكل أمة رسول شاهد عليهم، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم.. ويجوز أن يكون المعنى: أنهم لا يعذبون في الدنيا حتى يرسل إليهم، فمن آمن فاز ونجا، ومن لم يؤمن هلك وعُذّب»[14].

النوع الخامس: الجماعة المؤمنة برسالة محمد ﷺ:

ورد هذا المعنى في قوله تعالى:﴿ وَمِمَّن خَلَقنا أُمَّةٌ يَهدونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعدِلونَ ﴾[الأعراف: 181].

- وفي وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

قال ابن كثير (ت 774هـ) في تفسير الآية الثانية (آية البقرة): «إنما حولناكم إلى قبله إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ههنا الخيار، والأجود..»[15].

النوع السادس: جماعة العلماء.

ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: 110].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 104].

قال ابن الجوزي في الآية الأولى: «فيه قولان: أحدهما: أن معناه كنتم خير الناس للناس قال أبو هريرة: تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلون في الإسلام[16]. والثاني: أن معناه: كنتم خير الأمم التي أخرجت»[17].

وقال القرطبي في تفسير الآية الثانية: «.. ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس

---

[14] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 4/177 و 178.

[15] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 1/244.

[16] الجامع الصحيح المسند المختصر، للبخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، 2/363 و 364.

[17] زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، 1/440.

علماء»[18].

2-مفهوم الدين.

جاء مفهوم "الدين" في لفظ الأمة في قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: 213].

قال القرطبي: «.. (أمّة واحدة) أي: على دين واحد قال أبي بن كعب، وابن زيد: المراد بالناس بنو آدم حين أخرجهم الله نسماً من ظهر آدم فأقروا له بالوحدانية»[19].

ومما ورد في القرآن الكريم من لفظ "الأمة" بمفهوم الدين قوله تعالى: ﴿ وَلَو شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالونَ مُختَلِفينَ ﴾ [هود: 118].

قال ابن الجوزي: «.. قال ابن عباس: لو شاء أن يجعلهم كلهم مسلمين لفعل»[20].

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: 52].

قال العلامة محمود الطناحي في تفسير هذه الآية: «.. قال الضحاك: أي: دينك والمعنى: إن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة وشريعة متحدة، يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له»[21].

ومن الآيات التي وردت فيها لفظة "الأمة" بمعنى "الدين" قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: 48].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: «.. معنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله والقرآن لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات، والأصل التوحيد لاختلاف فيه، روي معنى ذلك عن قتادة.. وقوله تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لجعل شريعتكم واحدة فكنتم على الحقّ؛ فبيّن أنه أراد بالاختلاف إيمان قوم وكفر قوم.. فجعل شرائعكم مختلفة ليختبركم؛ والابتلاء: الاختبار»[22].

3- مفهوم الرجل الإمام المنفرد:

ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبراهيمَ كانَ أُمَّةً قانِتًا لِلَّهِ حَنيفًا وَلَم يَكُ مِنَ المُشرِكينَ﴾ [النحل: 120].

---

[18] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 109/2.

[19] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 22/2.

[20] زاد المسير، لابن الجوزي: 171/4.

[21] من أسرار اللغة في الكتاب والسنة – معجم لغوي ثقافي، للدكتور محمود الطناحي، 98/1 و 99.

[22] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 106/3

قال ابن قتيبة حول لفظ "الأمة" في هذه الآية: «(الأمّة) الإمام الرباني، أي: إماماً يقتدي به الناس؛ لأنه ومن اتّبعه أمة، فسمي أمّة لأنه سبب الاجتماع. وقد يجوز أن يكون سمي أمّة: لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمّة..»[23].

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «فيه وجهان: أحدهما أنه كان وحده أمّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير... والثاني أن يكون أمّة بمعنى مأموم: أي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير..»[24].

إن هذا الذي اجتمعت فيه كل خصال الخير بحيث صار إماماً يُقتدي به في الناس، حري به أن يكون أمّة وحده، أو هو –كما قال محمود الطناحي–: «قائم مقام جماعة في عبادة الله، كما يقال: فلان في نفسه قبيلة، وقال محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي: يقال للرجل الجامع للخير: أمّة، وقال أبو زكرياء الفراء: الأمة: معلم الخير. والأمة: الرجل المنفرد بدين»[25].

ووصف سيدنا إبراهيم بأنه أمّة ليس من قبيل المجاز –في نظر بعض الباحثين– وإنما هو إطلاق على الحقيقة، ذلك لأنه (إبراهيم عليه السلام) سبب الاجتماع، ولأنه كان مثالاً في عبادة الله فقد كان في الفضل والفتوة والكمال أمة كاملة[26].

4- مفهوم الزمن والحين.

وقد ورد هذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن أَخَّرنا عَنهُمُ العَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعدودَةٍ لَيَقولُنَّ ما يَحبِسُهُ أَلا يَومَ يَأتيهِم لَيسَ مَصروفًا عَنهُم وَحاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَستَهزِئونَ ﴾ [هود: 08].

والمعنى كما يقول ابن قتيبة: «أي: سنين معدودة، كأن الأمّة من الناس القرن ينقرضون في حين، فتقام الأمة مُقَام الحين»[27].

وقال القرطبي: «(أمّة) أي: أجل معدود وحين معلوم، فالأمة هنا المدّة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين، وأصل الأمة الجماعة؛ فعبّر عن الحين والسنين بالأمة لأن الأمة تكون فيها»[28].

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى:﴿ وَقالَ الَّذي نَجا مِنهُما وَادَّكَرَ بَعدَ أُمَّةٍ أَنا أُنَبِّئُكُم بِتَأويلِهِ فَأَرسِلونِ ﴾ [يوسف: 45].

قال الراغب الأصفهاني: «(ادّكر بعد أمة) أي: حين، وقُرِئَ بعد أمَة أي: بعد نسيان، وحقيقة ذلك بعد

---

[23] تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص 445. وينظر: تفسير زاد المسير، لابن الجوزي، 4/503.

[24] الكشاف، للزمخشري: 2/433. وينظر: تفسير النسفي، 2/377.

[25] من أسرار اللغة في الكتاب والسنة، لمحمود الطناحي، 1/99. وينظر: المشترك اللغوي نظرية وتطبيقاً، لتوفيق محمد شاهين، ص 253.

[26] ينظر: أثر السياق القرآني في الاشتراك اللفظي، لطالب محمد إسماعيل، ص 71 و 72.

[27] تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص 445.

[28] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 5/8.

انقضاء أهل عصر أو أهل دين»[29].

والحين في هذه الآية –كما يقول ابن الجوزي– هو «الزمان الذي لبثه يوسف بعده في السجن»[30].

وذكر بعضهم أن معنى (أمّة) السنين على لغة قبيلة (أزدشنوءه) خاصة[31].

ويبدو أن هذا المفهوم (الحين والزمن) يلتقي مع المعنى الحقيقي أو المفهوم الأصلي وهو (الجماعة)، في الدلالة على الكثرة والعدد في أفراد الجماعة، أو في الدلالة على السنين.

المبحث الثاني: الدلالات السياقية لمادة "وسط" ومشتقاتها في القرآن

نتناول في هذا المبحث الدلالات السياقية لمادة "وسط" ومشتقاتها، بما يسمح بإظهار تلك المفهومات المختلفة لتلك المشتقات، وأثر ذلك في بناء الدلالة العامة للآية أو السياق القرآني الذي وردت به.

إن هناك خمسة مشتقات وردت في القرآن حول مادة "وسط" وهي: "وسطاً" و"أوسط"، و"وسطن"، و"أوسطهم"، و"الوسطى"، ونحاول في السطور القادمة معرفة مفهوماتها وعلاقاتها الدلالية فيما بينهما، وإثبات مدى اشتراكها في نسق مفهومي واحد في السياق القرآني.

1) دلالة لفظة "وَسَطاً":

وردت هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

قال الراغب الأصفهاني حول مادة "وسط": «وسط الشيء ما له طرفان متساويا القدر ويقال ذلك في الكمية المتصلة بالجسم الواحد إذا قلت وَسَطُه صُلب.. يقال في الكمية المنفصلة كشيء يفصل بين جسمين نخو وَسْط القوم كذا والوسَطَ تارة يقال فيما له طرفان مذمومان يقال هذا أوسطهم حسباً إذا كان في واسطة قومه وأرفعهم محلاً.. فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح به نحو السواء والعدل والنّصَفة نحو (وكَذَلك جعلناكم أمة وسطاً).. وتارة يقال فيما له طرف محمود وطرف مذموم كالخير والشرّ..»[32].

فمفهوم "وسطاً" عند الراغب هو القصد المصون عن الإفراط والتفريط، وبهذا المعنى فسر ابن الجوزي الآية السابقة وذكر أن: «أصل ذلك أن خير الأشياء أوساطها، والغلو والتقصير مذمومان.. ومعناه: جعلت قبلتكم وسطاً بين القبلتين، فإن اليهود يصلون نحو المغرب، والنصارى نحو المشرق، وأنتم بينهما»[33].

وذهب القرطبي إلى أن الدلالة السياقية للفظة "وسطاً" ربما تأخذ معنى الكعبة أو المنزلة بين الأنبياء والأمم بحيث قال: «المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمّة وسطاً، أي جعلناكم دون الأنبياء

[29] معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص 22.
[30] زاد المسير، لابن الجوزي، 4/331.
[31] أثر السياق في الاشتراك اللفظي، لطالب محمد إسماعيل، ص 72.
[32] معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص 406.
[33] زاد المسير، لابن الجوزي، 1/154.

وفوق الأمم. والوسط العدل؛ وأصل هذا أن أحمدَ الأشياء أوسطها، وروي الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) قال: عدلاً..»[34].

ويبدو أن مفهوم العدل في لفظة "وسطاً" في الحديث الشريف يشير إلى معنى الإنصاف والفصل في الحكم، بدليل أن النبي ﷺ-وكما جاء صحيح مسلم- يورد قصة الأنبياء مع أقوامهم يوم القيامة بحيث جاء في نص الحديث «يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت فيقول: نعم ياربّ فتُسأل أمته هل بلّغكم فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ النبي ﷺ (وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً)»[35].

فالوسط في الآية هو الشهادة على الناس يوم القيامة، أو هو العدل بينهم، وبهذا استحقت أمة محمد أن تكون خير الأمم التي أخرجت للناس.

ومن الدلالات السياقية للفظة "وسطاً" دلالة الخيار قال الزمخشري: «(وسطاً) أي خياراً وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.. وقيل للخيار وسط لأن الأطراف يسارع إليها الخلل والأعوار والأوساط محمية محوطة.. لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض»[36].

على أن الزمخشري -في تفسيره للآية- أورد حديثاً للنبي ﷺ هو قوله: «وأنطوا الثبجة»، وأشار إلى أن لفظة "الثبجة" مرادفة لكلمة "وسط" وتعنيان الخيار قال: «الثبجة الوسيطة بين السمينة والعجفاء وصفا بالثبج وهو وسط الظهر..»[37].

وأما صاحب اللسان فقد ذكر ما نصه «أنطوا الثبجة أي أعطوا الوسط في الصدقة لا من خيار المال ولا من رذالته..»[38]، ولم ينص ابن منظور على أن هذا حديث للرسول ﷺ بل نسبه إلى غيره، ومن المفيد هنا أن نذكر ما أورده الزمخشري[39] -في الفائق- من أن الثبج هو "الوسط" وذلك في حديثين شريفين؛ الأول منهما هو قوله ﷺ: «أخيار أمتي أولها وآخرها، وبين ذلك ثبج أعوج ليس منك ولست منه».

وأما الحديث الثاني فهو حديث عبادة رضي الله عنه «يوشك أن يُرى الرجل من ثبج المسلمين قرأ القرآن على لسان محمد، فأعاده وأبدأه، لا يحور فيكم إلا كما يحور[40] صاحب الحمار الميت».

2- دلالة لفظة "وسطن": وردت هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ [العاديات: 05].

---

[34] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 101/1.

[35] الجامع الصحيح المسند المختصر، للبخاري، باب قوله تعالى: (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)، 495/3.

[36] الكشاف، للزمخشري، 317/1.

[37] الكشاف، للزمخشري، 317/1.

[38] لسان العرب، لابن منظور، 17/2، (ث ب ج).

[39] ينظر الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، 161/1 و 162.

[40] أي: لا يرجع أولا يصير حاله إلا كحال من يعرض حماراً ميتاً فلا يعنّ له من يشتريه منه.

جاء في لسان العرب: «.. أوسطت القوم ووسطتهم وتوسطتهم بمعنى واحد إذا دخلت وسطهم قال الله عزّ وجلّ (فوسطن به جمعاً)، وقال الليث يقال: وسط فلان جماعة من الناس وهو يسطهم إذا صار وَسْطَهم..»[41].

وانطلاقاً من هذا المعنى اللغوي لـ (وسط) فإن دلالة (وسطن) لم تخرج – عند المفسرين– عن معنى توسط الشيء أو المكان وهو الحلول في وسطه، قال ابن الجوزي: «..(فوسطن) قال المفسرون: المعنى: توسطن جمعاً من العدو فأغارت عليهم..»[42].

وقال القرطبي: «(فوسطن) أي فوسطن بركبانهن العدو؛ أي الجمع الذي أغاروا عليهم.. ويقال: وَسَطت القوم أَسِطهُم وَسْطاً وسِطَة؛ أي صرت وسطهم. وقرأ علي (رضي الله عنه) (فَوسَّطن) بالتشديد، وهي قراءة قتادة وابن مسعود وأبي رجاء لغتان بمعنى: يقال وَسَّطتُ القوم (بالتشديد والتخفيف) وتوسّطتهم: بمعنى واحد، وقيل: معنى التشديد: جعلها الجمع قسمين، والتخفيف: صرن في وسط الجمع..»[43].

فالدلالة السياقية للفظة (وسطن) لا تخرج عن معنى التوسط في المكان أو الالتباس[44] بما فيه أو الحلول في وسط جمع أو أفراد.

3– دلالة لفظة "أوسط".

وردت هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المائدة: 89].

قال ابن الجوزي: «في قوله (أوسط) قولان: أحدهما: من أوسطه في القدر قاله عمر، وعلي، وابن عباس، ومجاهد. والثاني: من أوسط أجناس الطعام، قاله ابن عمر، والأسود، وعبيدة..»[45].

فدلالة "أوسط" هنا متعلقة بالقدر المعطى من الطعام أو بالمتوسط من أجناس الطعام، بحيث لا يكون من أعْلاها ولا من أقلها نوعاً.

ويرى القرطبي أن دلالة "أوسط" هنا هي: «دلالة المنزلة بين منزلتين ونصفاً بين طرفين»[46] وبهذا المعنى فسّر القرطبي لفظة "وسطاً" –كما رأينا سابقاً– في تفسير قوله تعالى: (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) حين قال: «..وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمّة وسطاً، أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم»[47].

وذهب الزمخشري إلى أن "أوسط" في هذه الآية تعني (أَقْصَدِ) قال: «..(من أوسط ما تطعمون) أي: من

---

[41] لسان العرب، لابن منظور، 4/835 (و س ط).
[42] زاد المسير، لابن الجوزي، 9/209.
[43] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 10/98.
[44] فسر الزمخشري (وسطن) بالتباس الخيل أو غيرها بالجمع الذي تحلّ فيه. ينظر: الكشاف، 4/278.
[45] زاد المسير، لابن الجوزي، 2/414.
[46] الجامع لأحكام القرآن، 3/141.
[47] الجامع لأحكام القرآن، 1/101.

أقصده، لأن منهم من يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتر..»[48].

فدلالة القصد عند الزمخشري تتعلق بقدر الطعام الممنوح، فلا يكون الإنفاق بإسراف ولا يكون بتقتير وإنما بين ذلك قواماً.

ويتضح مما سبق أن الدلالة السياقية للفظة "أوسط" تتعلق أكثر ما تتعلق بالقدر المعطى من الطعام أو من اللباس، وذلك بأن يكون في منزلة بين الإسراف والتقتير.

4- دلالة لفظة "أوسطهم".

وردت هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم: 28].

وقد أشار بعض المفسرين إلى أن (أوسطهم) تعني أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم[49] وأشار بعضهم الآخر إلى أنها تعني خيرهم[50].

وذكر الزمخشري –في الفائق– أن الوسيط من القوم هو أفضلهم جاءت من الوسط، وقد وَسَط وساطة[51]، وعلى ذلك فإن الدلالة السياقية لـ (أوسطهم) هي: خيرهم وأعدلهم وأقصدهم إلى الحق[52] وهي كلها معان متقاربة يصح أن تكون مجتمعة في الموصوف بها.

وقال الزمخشري في – الأساس–: «هو وَسَط في قومه، وسِطه ووسيط فيهم، وقد وسَّط وساطة، وقوم وَسَط وأوساط: خيار»[53]، ولا شك أن معنى الخيرية والعدل والقصد في طلب الحق كلها معان تتفق مع الدلالة المقصود بناؤها في الآية؛ فهذا الرجل الناصح لقومه بأن يسبحوا لله ويستغفرونه على ما بدر منهم من سوء ظن به وحرمان للفقراء مما ملّكهم الله أياه... هو أفضلهم رأياً وأرجحهم عقلاً وأعْقلهم[54] في وزن الأمور بميزان العدل والحق، ذكرهم في الوقت المناسب بما كان حذرهم بتأكيد (ألم أقل) أي قد قلت لكم مذكراً (لولا تسبحون) أي: هلاّ تسبحون الله فإن التسبيح تنزيه لله تعالى أن يكون شيء إلا بمشيئته.

5- دلالة لفظة "الوسطى".

وردت هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238].

اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في تعيين الصلاة الوسطى بين من قال: إنها العصر أو إنها الفجر أو إنها الظهر أو المغرب أو العشاء الأخيرة، وذكر ابن الجوزي ثلاثة أقوال في المراد بالوسطى «أحدها أنها أوسط

---

[48] الكشاف، 640/1.

[49] ينظر: زاد المسير لابن الجوزي، 338/8، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 156/9.

[50] ينظر: الكشاف، 145/4، وتفسير النسفي، 342/4.

[51] ينظر: الفائق في غريب الحديث، 160/3.

[52] المصباح المنير للفيومي، ص 659.

[53] أساس البلاغة للزمخشري، ص 675 (و س ط).

[54] ينظر: في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز علمياً وبيانياً، لنور الدين عتر، ص 168.

الصلوات محلاً، والثاني أوسطها مقداراً والثالث: أفضلها»[55].

وقد رجح ابن الجوزي أن تكون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر بدليل حديث البراء بن عازب الذي جاء فيه: «نزلت هذه الآية (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها ما شاء الله، ثم نسخها الله فنزلت (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطى)، فقال رجل كان جالساً عند شقيق له: هي إذن صلاة العصر. فقال البراء: قد أخبرتك كيف نزلت وكيف نسخها الله والله أعلم»[56].

وأما الدلالة السياقية للفظة (الوسطى) فأغلب المفسرين[57] على أنها جاءت في الآية بمعنى الفضلى من قولهم للأفضل الأوسط، ووسط الشيء خيره وأعدله، قال أبو هلال العسكري: «الوسط يقتضي اعتدال الأطراف إليه ولهذا قيل الوسط العدل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلك جَعَلنَاكم أُمَّةً وَسَطاً﴾»[58].

وهذه الدلالة (الفضلى) تتفق تماماً مع دلالة لفظة "وسطاً" التي وردت في الآية 143 من سورة البقرة.

المبحث الثالث: مظاهر الوسطية في تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس

تناول الإمام عبد الحميد بن باديس في تفسيره موضوع الوسطية من خلال إيراده لمجموعة من مظاهرها المهمة؛ مثل مظهر الخيرية والاستقامة، ومظهر العدل، ومظهر الأمن والطمأنينة، وفيما يلي بيان ذلك .

1-مظهر الخيرية والاستقامة.

ذكر ابن الجوزي في تفسيره أن الوسطية التي وصفت بها أمّة محمد ﷺ تعني فيها تعنيه الخيرية والاستقامة حيث قال:«وأصل ذلك أن خير الأشياء أوساطها، والغلو والتقصير مذمومان وذكر ابن جرير الطبري أنه من التوسط في الفعل، فإن المسلمين لم يقصروا في دينهم كاليهود، فإنهم قتلوا الأنبياء، وبدّلوا كتاب الله، ولم يغلوا كالنصارى، فإنهم زعموا أن عيسى ابن الله»[59].

ويستخلص مما سبق أن ابن الجوزي والطبري[60] قد وضعا أيديهما على واحدة من الدلالات المفهومية لمصطلح "الأمة الوسط" وهي دلالة الاستقامة؛ والمعنى هنا أن كلا من اليهود والنصارى يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا الشرعية وغيرها.

وتتجلى هذه الاستقامة في اتباع الصراط المستقيم قال تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: 6 و 7].

فهي –كما عبّر بعض المفسرين–: «.. إن من اتبع النبي ﷺ واقتدى بالذين من بعده أبي بكر وعمر فقد

---

[55] زاد المسير، لابن الجوزي، 283/1 و 284.

[56] صحيح مسلم، ص 213، 208 (630). وينظر: زاد المسير، 282/1.

[57] ينظر: الكشاف، للزمخشري، 375/1 و 376. والجامع لأحكام القرآن، 136/2. وتفسير النسفي، 144/1.

[58] الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري، ص 304.

[59] زاد المسير، لابن الجوزي، 154/1. وينظر: جامع البيان، للطبري، 626/2.

[60] قال الطبري: «أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين مثل وسط الدار» جامع البيان، 626/2.

اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم»[61].

فالصراط المستقيم يعني استقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف ذات اليمين أو ذات الشمال.

ويرى الإمام عبد الحميد بن باديس أن الدليل على الاستقامة في الأمة الوسط مستفاد من وصف الإسلام بأنه صراط مستقيم، وأن الإسلام « تشريع تام عامّ لجميع أعمال الإنسان: أعمال قلبه، وأعمال لسانه، وأعمال جوارحه، وجميع معاملاته الخاصة والعامة بين أفراده وأمه، ولا تخرج كلية من كلياته، ولا جزئية من جزئياته عن هذا الأصل العام المتجلي في جميع الأحكام، وهو الحق والخير والعدل والإحسان».[62]

وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الإنسان، ولكنها بإجماع المتشرعين لا تخلو من نقص واعوجاج واضطراب فهم ما يفتئون يتبعونها بالتكميل والتقويم والتعديل على ممرّ الأيام.[63]

ويضيف الإمام عبد الحميد بن باديس مستعرضاً تطبيق ذلك المفهوم على أحكام الإسلام قائلاً: «ولو عرضت كل حكم من أحكامه على الأصل العام الذي ذكرناه؛ لوجدته منطبقاً عليه، ظاهراً فيه، حتى ما خفي وجهه على الأمم الأجنبية من الإسلام أيام تأخرها، وقد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدمها، فجاء كبراء عقلائها، يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الإسلام. ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أممهم للعادة الغالبة والوراثة القديمة، منها مسألة الطلاق، وتعدد الزوجات، وتحريم الربا تحريماً باتاً.[64]

فكم من عالم غير مسلم صرح بأن الحق والعدل والخير للإنسانية في هذه المسائل، هو ما شرعه الإسلام على الوجه الذي شرعه الإسلام.[65]

ويختم ابن باديس حديثه عن الاستقامة بقوله: «فهذه الاستقامة التامة العامة المطّردة في شرع جاء به رجل أمي من أمَّة أمّية جاهلية، يجزم كل عاقل بأنه ليس من وضع العباد، وإنما هو من وضع خالق العباد»[66].

2- مظهر العدل.

إن من مظاهر الوسطية مظهر العدل، وقد ترتب على وجود هذه الصفة أن أمة محمد ﷺ لا تُقبل شهادتها على الأمم السابقة (لِتَكُونوا شهداء على الناس) إلا على هذا الأساس؛ فلو لم تكن عادلة فإن شهادتها مرفوضة مردودة.

إن ثبوت هذه الدلالة المفهومية (العدل) في مصطلح "الأمة الوسط" أمر تؤكده السنة النبوية، فقد ثبت عن النبي ﷺ -كما جاء في صحيح مسلم- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. أن النبي ﷺ فسر

[61] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 42/1.
[62] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 271/2 و 272.
[63] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 272/2.
[64] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 272/2.
[65] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 272/2.
[66] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 272/2.

الوسط في قوله تعالى: ﴿جعلناكم أمة وسطاً﴾ بالعدل[67]، والعدل والتوسط معنيان متقاربان، لأن العدل توسط بين طرفين متخاصمين أو بين أطراف متخاصمة، دون تحيز أو ميل إلى أحدهما أو أحدها، فيستعمل – كما عبر عن ذلك الراغب الأصفهاني– «استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح به نحوُ السواء والعدل والنّصفة»[68].

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم: 28].أي: أعدلهم[69].

ومن أمثلة مظهر العدل في مفهوم الوسطية عند ابن باديس ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ وَلا يَزيدُ الظّالِمينَ إِلّا خَسارًا﴾ [الإسراء: 82].

قال ابن باديس: «فرّط قوم فأهملوا الاستشفاء بالذكر المأثور، واقتصروا على الدواء المادي، فحرموا أنفسهم من خير كثير إذا لم يكونوا له من المنكرين!

وأفرط آخرون، فأهملوا الدواء المادي، وزهدوا الناس فيه، وتزيدوا في جانب المأثور، حتى خرجوا عنه، واتخذوا لهم من ذلك حرفة وموردا للمعاش، ونسوا أنواع أشفية القرآن الروحية والاجتماعية التي هي المقصودة بالقصد الأول من تنزيله، مقتصرين على الوجه الذي وجدوا منه سبيلاً إلى الاسترزاق على ما أحدثوا فيه وما ابتدعوا، فعكسوا الأمر، وخالفوا السنة ووقعوا في المحظور من عدة وجوه.

هذا الطرفان مذمومان، والعدل هو الوسط الذي لا يهمل هذا ولا ذاك، ويقف في الوارد عند ما ورد، ويتناوله على ما ورد»[70].

ومن أمثله مظهر العدل – أيضاً– عند ابن باديس ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51].

قال ابن باديس: «.. فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها الله كما حرّم غلاة المتصوفة اللحم.

وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك، ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام.

والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وقد بين ذلك أئمة السنة والأثر رحمهم الله، وقد جوّده مالك رحمه الله في كتاب الجامع من الموطأ»[71].

ومن أمثله ذلك أيضاً ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67].

---

[67] ينظر الجامع الصحيح المسند المختصر، للبخاري، باب قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً)، 3/495.
[68] معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص 406.
[69] ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي، 8/338، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 9/156.
[70] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 1/360.
[71] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 1/417 و 418.

قال ابن باديس مبيناً طرفي الإسراف والتقتير: «الإسراف: مذموم فهو ما كان في منهي عنه: نهي تحريم أو كراهة، أو في مباح قد يؤدي إليها.

فالأول: كمن أولم وليمة أنفق فيها جميع ماله وأصبح بعدها هو وأهله للضيعة والحاجة.

والثاني: كمن أولم وليمة دعته إلى الاستدانة، وإن كان يظن القدرة على الأداء؛ لأن الدين محذّر ومستعاذ منه.

والثالث: كالاستمرار على إيلام الولائم مع القدرة عليها في الحال، مما قد يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين في المال.[72]

ويضيف ابن باديس: «والتقتير: مذموم أيضاً فهو ما كان إمساكاً عن مأمور به: أمر وجوب أو استحباب، أو عن مباح يؤدي إليهما.

فالأول: كمن يمسك عن أهله شُحّاً حتى يذيقهم ألم الجوع والبرد.

والثاني: كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التي يخص بها نفسه من السوق.

والثالث: كمن يمسك عن تطييب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها، مما قد يفسد قلب زوجته عليه، أو يحملها على ما لا يرضيه[73].

والتوسط في ذلك –عند ابن باديس– هو القوام العدل الممدوح، وهو أن ينفق في الواجب والمندوب وما يؤدي إليهما، ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدي إليهما، ويتسع في الحلال دون مداومة في الأوقات واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتهيات.[74]

3- مظهر الأمن والطمأنينة.

ومن مظاهر وسطية الإسلام في عديد الجوانب مظهر الأمن والطمأنينة؛ فالوسط منطقة أمان بين طرفين قد يتعرضان للخطر والفساد، وهو محمي محوط، وأما الأطراف فقد «يتسارع إليها الخلل والأعوار»[75].

والأمن أو الأمان هنا هو الأمن في النفس، والأمن في التشريع، والأمن في الأخلاق، والأمن في النظام، والأمن في المنهج، ومرَدّ ذلك كله إلى الوضوح في الأهداف والغايات الذي اتسمت به شريعة أمة محمد ﷺ، وعبر عنه القرآن الكريم بالنور قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة: 15-16].

يقول الإمام ابن باديس في تفسير هذه الآية: «تمر على العبد أحوال يكون فيها متحيّزاً مرتبكاً كمن يكون في ظلام، منها حالة الكفر والإنكار، وليس لمنكر الحق المتمسك بالهوى والمقلد للآباء من دليل يطمئن به ولا

---

[72] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 2/127 و 128.

[73] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 2/127 و 128.

[74] ينظر: تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 2/127 و 128.

[75] الكشاف، للزمخشري، 1/317.

يقين بالمصير الذي ينتهي إليه، ومنها حالة الشك، ومنها حالة اعتراض الشبهات، ومنها حالة ثوران الشهوات»[76].

ويضيف ابن باديس: «وكما أن الله يرشد ويوفق من اتبعوا رضوانه طرق السلامة والنجاة بالرسول ﷺ والقرآن، كذلك يخرجهم بهما باتباعهما والاهتداء بهما من ظلمات الكفر والشك والشبهات والشهوات، وما فيها من حيرة وعماية إلى الحالة التي تطمئن فيها القلوب، كما تطمئن في النور عندما يسطع فيبدد سدول الظلام، فباتباعهما (الرسول والقرآن) فقط تطمئن القلوب بالإيمان واليقين، فتضمحل أمامها الشبهات، ويتكسر سلطان الشهوات. فتلك الأحوال العديدة الظلمانية التي يكون فيها من أعرض عنهما أو خالفهما يخرج منها إلى الحالة النورانية الوحيدة، وهي حالة من آمن بهما واتبعهما ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.[77]

خاتمة

بعد مدراستنا-في هذا الموضوع- لمباحث النظام المفهومي لمصطلح "الأمة الوسط" في القرآن، وبعد بيان مظاهر الوسطية القرآنية في تفسير الإمام ابن باديس.. يمكننا أن نخلص إلى جملة نتائج محدّدة نجملها في الآتي:

1-إن النظام المفهومي لمصطلح "الأمّة" يشتمل على أربعة مفاهيم عامة هي: مفهوم الجماعة وتندرج تحته أنواع وهي: الجنس من كل حي، والجماعة من الناس، والجماعة التي لها موقف من الدين، والجماعة التي أرسل إليها رسول، وجماعة العلماء.

وأما المفاهيم الثلاثة الأخرى فهي: مفهوم الدين، ومفهوم الرجل الإمام المنفرد، ومفهوم الزمن والحين، وكلها مفاهيم ترتد في الواقع إلى مفهوم أصل جامع لها هو القصد، كما ذكر صاحب اللسان.

2-إن هناك دلالات سياقية متعددة لألفاظ: "وسطاً" و "وسطن" و "أوسط"، و "أوسطهم" و"الوسطى" وهي دلالات: الخيار والعدل والنّصفة والقصد والالتباس بالمكان وسط جمع أو أفراد.. وكلها تشير إلى معاني: القوة والوحدة والتميز والأفضلية في المتصف بها، إنساناً كان أو منهجَ دين.

3-يحمل مصطلح "الأمة الوسط" في دلالته القرآنية والإسلامية نسقاً مفهومياً خصباً، يشتمل على عناصر ودلالات: الاستقامة، والعدل، والخيرية، والأمن والأمان.

4-أدرك الإمام ابن باديس- من خلال تفسيره- معاني: العدل والخيرية والاستقامة والأمن وغيرها.. باعتبارها مظاهر للوسطية في القرآن، فراح يعمل على تقرير هذه المعاني في عقول وأذهان أفراد المجتمع من المخاطبين، عبر تعليم العقيدة الصحيحة، وبث روح القرآن وسلوك الاعتدال عند الفرد المسلم، في الفهم والعمل، بعيداً عن الجهل، التعصب، والآبائية، والغلو، والتطرف.

- قائمة المصادر والمراجع

[76] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 115/1.

[77] تفسير ابن باديس، للإمام ابن باديس، 115/1 و 116.

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1-أثر السياق القرآني في الاشتراك اللفظي، للدكتور طالب محمد إسماعيل، دار كنوز المعرفة، عمان (الأردن)، ط1، 1436هـ-2015م.

2-أساس البلاغة، لمحمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر، بيروت (لبنان)، 1420هـ-2000م.

3-تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرح ونشر: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت.

4-تفسير ابن باديس(مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، للإمام عبد الحميد بن باديس، اعتناء وتخريج للأحاديث والآثار: أبو عبد الرحمان محمود، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 1432ه-2011م.

5-تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي، تحقيق: أنس محمد الشامي ومحمد سعيد محمد، دار البيان العربي، القاهرة، د.ط، د.ت.

6-تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تحقيق: مجدي منصور، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط2، 2014م.

7-جامع البيان في تأويل آي القرآن، للإمام محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، الجيزة (جمهورية مصر العربية)، ط1، 1422هـ-2001م.

8-الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ضبط ومراجعة: محمد صدقي العطار، دار الفكر، بيروت (لبنان)، ط1، 1428هـ-2008م.

9-الجامع الصحيح المسند المختصر، للإمام البخاري، مؤسسة زاد للنشر والتوزيع، القاهرة، 1434هـ-2012م.

10- زاد المسير في علم التفسير، للإمام ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط4، 1407هـ-1987م.

11- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 1434هـ-2013م.

12- الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت (لبنان)، 1414هـ-1993م.

13- الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت (لبنان)، ط7، 1411هـ-1991م.

14- في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز علمياً وبيانياً، للدكتور نور الدين عتر، مطبعة الصلاح، دمشق (سورية)، ط12، 1430هـ-2009م.

15- الكشاف، للزمخشري، دار الفكر، بيروت (لبنان)، د.ط، 1428هـ/1429-2008م.

16- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق وتعليق: عامر أحمد حيدر، مراجعة: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت (لبنان)، ط1، 1426هـ-2005م.

17- المصباح المنير، للفيومي، دار الفكر، بيروت (لبنان)، د.ط، د.ت.

18- معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، دار الفكر، بيروت (لبنان)، د.ط، 1431هـ/1432-2010م.

19- من أسرار اللغة في الكتاب والسنة –معجم لغوي ثقافي، لمحمود الطناحي، المكتبة المكية (مكة المكرمة)/ دار الفتح للدراسات (عمان)، ط1، 1428هـ-2008م.